٨ ـ بين القاهرة وطوس

المشهد وطوس

للدكتور عبد الوهاب عزام

يرى الوافد على مدينة المشهد قبة عاليـة مغشاة بالذهب ومنارتين مذهبتين رفيعتين . فهذا أول ما يسرّ البصر من مسجد الامام على الرضا . فاذا ذهب إلى المسجد الذى يسمى الحرم الرضوى أو العتبة المقدسة (آستانة مقدس) رأى أبنية جميلة شامخة واسعة رائعة لا يستطيع المشاهد أن يعرف خططها ويدرك أقسامها إلا بعد تأمل طويل وزيارات كثيرة

إذا دخل القادم المدينة من غربيها فسار فى الشارع الكبير تلقاء الشرق انتهى إلى أبواب ضخام رائعات وراءها طريق مبلط ينتهى إلى مدخل الحرم الرضوى فيلجه إلى الصحن القديم (صحن كهنه) وهو فناء واسع تجرى فى وسطه قناة ماء ويحيط به مساكن لطلاب العلم وغيرهم . وإنى أشفق على القارئ من تفصيل الكلام فى وصف هذا الحرم العظيم الذى توالت عليه الأيدى بالتشييد والتزيين قروناً كثيرة . فحسبى أن أقول إن فى وسط الحرم قبة الامام الرضا وأروقة متصلة بها وعند الصحن القديم شمالى هذه الأبنية ، والصحن الجديد شرقيها ، ومسجد جوهر شاد جنوبيها . ويحار الطرف فى جمال القبة الشريفة وزينتها وفيما فى المسجد كله من الكاشانى والبلوز والذهب الخالص ، والقبة تقوم على قبر الامام الرضا . وهو فى جانب منها ، ويُظن أن قبر هرون الرشيد فى وسط القبة ولكن لا يرى الزائر منه أثراً

أقدم ما فى هذه الأبنية يرجع إلى سنة ٥١٢ وهو بناء السلطان سنجر السلجوقى . وقد توالى الملوك والكبراء من بعده على البناء والتنافس فيه ، ومن هؤلاء السلطان ألجايتو ، من الملوك الأيلخانية ، وشاهرخ بن تيمورلنك وزوجه جوهر شاد ، ومشير على نوائى وزير السلطان حسين بايقرا ، ثم الملوك الصفويون ولا سيما طهماسب وعباس الكبير ؛ ومن القاجاريين فتح على شاه وناصر الدين شاه . كل هؤلاء بذلوا جهدهم فى أن يؤثروا فى المشهد الرضوى أثراً خالداً يكسف آثار من سبقهم فتركوا هذا البناء الجليل الذى يعجز القلم عن تصويره للقارئ

وقد وعدت فى المقال السابق أن أصف مسجد جوهر شاد هذه الأميرة التقية الخيّرة ، فهو مسجد يمتد جنوبى المشهد الرضوى من الشمال إلى الجنوب (٩٥ × ٨٤ متراً) وأعظم أواوينه الايوان الجنوبى ، وهو عقد هائل ارتفاعه ٢٥ متراً غشى كله بالكاشانى الجميل ، وعلى دائرته آيات من القرآن بأحرف كبيرة جميلة كتبها بخطه الأمير بايسنقر بن شاه رخ بن تيمورلنك ، وذلك إلى آثار أخرى دليل على عناية أمراء المسلمين بالفنون الجميلة ولاسيما الخط . وفى هذا الايوان كرسى من الخشب يقال إن المهدى سيجلس عليه أول ما يظهر للناس ؛ وفى وسط المسجد مصلى يسمى مسجد بيرزن (مسجد المرأة العجوز) وفيما يلى المشهد الرضوى بنيّة اسمها دار الحفاظ . وتصل المسجد بالمشهد الرضوى أبواب صغيرة

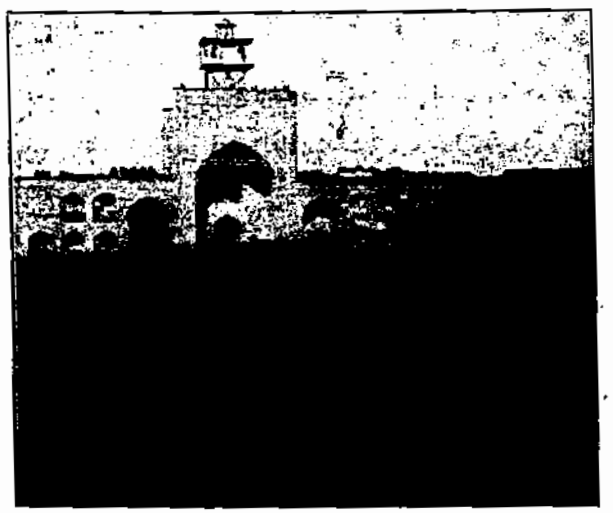

مسجد الامام على الرضا بمدينة المشهد

زرنا المسجد الرضوى صبيحة الجمعة ثالث رجب سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة وألف فرأينا أفواجاً من الزائرين والزائرات متزاحمين بين مصلّ ومسبّح وداع وباكٍ ومقبّل للأعتاب ومطيف بالضريح المقدس ، ولهذا الحشر دوىّ يملأ القلب خشوعاً ورهبة ، وسار بنا الدليل إلى بناء فى ناحية من الحرم اسمه حجرة التشريفات ، فصعدنا إلى حجرة كبيرة بها جماعة من القوّام على الحرم فأحسنوا لقاءنا وقدموا الينا الشاى ، وتحدثوا معنا بالعربية والفارسية معلنين سرورهم واغتباطهم ، ومتحدثين بالاخوة الاسلامية التى تجمعنا وإياهم ؛ ثم انصرفنا شاكرين آملين أن نعود الى شرف الزيارة مرات حتى تقضى النفس لبانتها من مشاهدة هذا الجمال والجلال

ويوم الأحد التالى زرت المكتبة الرضوية وهى فى الصحن الجديد فى الطبقة الثانية ، وقد اطلعت فيها على مصاحف يحار الانسان فى سرّها ويعجز عن وصفها ، وحدثنى قيّم المكتبة

أن بها آلافاً عدة من المصاحف المخطوطة : رأيت قطعة من مصحف بخط كوفى فى آخرها : « كتبه على بن أبى طالب » ، ومصحفاً كاملاً بخط كوفى فى آخرها : « كتبه الحسن بن على بن أبى طالب » ، ورأيت مصحفاً وقفه ابراهيم قطب شاه سنة ٩٧٠ فيه ٣٣٩ ورقة ، وفى كل صفحة ١٢ سطراً محلاة بالذهب والمينا ، وطول الصفحة ٥٦ قيراطاً وعرضها ٣٧ ، وفيه من بدائع الصناعة ما يجل عن الوصف ، فما يزال الناظر فيه حائر القلب والطرف ؛ ومصحف آخر وقفه السيد محمد جعفر خان سنة ١١٤٨ فيه ٦٠٦ ورقات كل ورقة لها نقش خاص يخالف نقش الورقات الأخرى . وفى هذه المصاحف من عجائب النقش والوراقة والتجليد ما لا يدركه إلا ابرائى . وقد قيل لى إن بعض الأوربيين بذل فى جلد مصحف منها مئات الجنيهات فلم يظفر به . ورأيت ورقة واحدة من مصحف فى طول قامة الرجل الطوال . وبها سبعة أسطر بخط الأمير بايسُنقر

وقد شهدنا فى مدينة المشهد افتتاح مستشفى الشاه رضا وهو مستشفى كبير مجهز بأجهزة حديثة ، ومعرض صناعات خراسان ، ورأينا ألعاباً رياضية كالتى رأيناها فى ميدان سلطنت آباد بطهران وقد وصفتها آنفاً . وكانت حفلات للغداء والعشاء دعا اليها رئيس الوزراء ومتولى الحرم الرضوى ، ألقيت فيها خطب كثيرة .

وزرنا مدفن نادر شاه ، وهو البطل الكبير الذى رفعته همته من رعى الغنم الى رعاية الأمم ، والذى أخرج الأفغانيين من إيران ، ودبر الأمور باسم الصفويين حيناً ، ثم استبد بالأمر وتسمى نادر شاه ، ثم فتح أفغانستان والبنجاب وغنم كنوزاً لاتحصى من دهلى ، واضطر الدولة العثمانية الى مصالحته على ما أراد لدولته ، وتوفى سنة ١١٦٠ بعد أن سيطر على إيران عشرين سنة ـ دخلنا حديقة واسعة فى وسطها بناء مرتفع قليلاً يشتمل على حجرات عدة ، دخلنا واحدة منها فقيل هنا دفن نادر شاه وسيشاد له قبر هنا

طوس :

على خمسة وعشرين كيلاً الى الشمال من مشهد ، آثار المدينة الكبيرة التى كانت من أعظم مدن خراسان ، والتى نشأت جماعة من كبار العلماء والأدباء : مدينة طوس . وطوس اسم أقليم فى خراسان كان فيه مدينتان كبيرتان : طابران ونوقان . فأما طابران فقد اتسعت ونبهت حتى سميت طوساً باسم الأقليم كله ، وبقى اسم طابران على إحدى محلاتها . وأما نوقان فكان على مقربة منها قرية سناباذ التى دفن فيها الرشيد العباسى والرضا العلوى فنمت حتى صارت مدينة المشهد الحاضرة واتصلت أبنيتها بنوقان ونسخت اسمها

وقد اشتبه أمر طوس ونوقان على بعض الجغرافيين فقالوا إن مدينة طوس مدينتان : طابران ونوقان . قال ياقوت عن طوس : « وهى مدينة بخراسان بينها وبين نيسابور عشرة فراسخ تشتمل على بلدتين يقال لاحداهما (طابران) ، وللأخرى (نوقان) » والحق أن لاقليم طوس مدينتين كبيرتين هما طابران التى سميت طوس ونوقان التى اندمجت فى مشهد كما قدمت . وكان لطوس شأن فى التاريخ الاسلامى ، وتقلبت بها الغِيَر حتى خربها ميرانشاه ابن تيمورلنك سنة ٧٩١ هـ

وينسب إلى مدينة طوس الامام الغزالى ، ونصير الدين الطوسى وغيرهما من العلماء . وقد مات الغزالى بها ودفن بالطابران إحدى محلاتها ، رابع عشر جمادى الآخرة سنة ٥٠٥ ، ورثاه الأبيوردى فقال :

بكى على حجة الاسلام حين ثوى ... من كل حىّ عظيم القدر أشرفُه
وما لمن يمترى فى الله عَبرته ... على أبى حامد لاح يعنفُه
تلك الرزيّة تسهوى قُوى جلَدِى ... والطرف تسهره والدمع تنزفه
فماله خلّة فى الزهد منكرة ... ولا له شبه فى الخلق نعرفه
مضى ، وأعظم مفقود فجعت به ... من لانظير له فى الخلق يخلفه

وينسب إلى طوس كذلك الشاعر الفارسى أبو القاسم الفردوسى صاحب الشاهنامة المتوفى سنة ٤١١ . وبها مات ودفن على مقربة من باب رزان أحد أبواب المدينة . فى سورها الشمالى الشرقى

وقد زار نظامى العروض قبر الفردوسى سنة ٥١٠ وقال : « وكان داخل الباب بستان للفردوسى فدُفن فيه وهو اليوم هناك » وقال هولتشاه السمرقندى سنة ٨٩٣ « وقبره فى طوس بجانب مزار العباسية ، ومرقده الشريف معروف اليوم ، يزوره الناس » ويقول القاضى نور الله فى أواخر القرن العاشر الهجرى إنه زار قبر الفردوسى

وقد رآه بعض سياحى أوربا ، أوائل القرن التاسع عشر الميلادى . وقال خانيكوف سنة ١٨٥٨ إن البناء الصغير الذى كان يميز قبر الفردوسى قد اندثر

وقد اجتهد أدباء إيران حتى عرفوا بالقرائن مكان القبر

فشادت الدولة عليــه بناء فخما يرى القاوىء صورته تحت هذا :

قبر الشاعر العظيم أبو القاسم الفردوسى

مرنا إلى طوس عشية يوم الجمعة ثالث شهر رجب (١٢ أكتوبر سنة ١٩٣٥ ــ ٢٠ مهرماه سنة ١٣١٣) فبلغناها بعــد نصف ساعة فملنا إلى الشرق ، واجتزنا نهر كشف فى جادة واسعة تفضى إلى حديقة الفردوسى ، فرأينا بستاناً كبيراً يتوسطه حوض واسع ، وراءه بنيّة جميلة رائعة . وهى مصطبة واسعة مربعة يتوسطها بناء مربع القاعدة يرتفع زهاء أربعة أمتار ، كتب على أربعة أوجهه أبيات من الشاهنامة . وزيد على الوجه الأول كتابة تبين عن عناية جلالة الشاه رضا بهلوى بالفردوسى ، وأمره بتشييد البنــاء فى التاريخ المبيّن به

وللبناء باب صـــغير على جانبيه نقوش تمثل حوادث فى الشاهنامة . ويفضى الباب إلى حجرة فى وسطها قبر عليه صفيحة مربعة من المرمر نحت فيها كلمات معناها أن أدلة كثيرة تثبت أن هنا قبر الفردوسى وتاريخ مولد الشاعر ووفاته ، وفى الجدار المقابل للباب كوّة . والبناء فى جملته جميل رائع

جلسنا فى سرادق ضرب هنــالك ، فلما اقترب مقدم جلالة الشاه ، سرنا إلى النصب فوقفنا على سجاجيد فرشت بين الحوض والبناء ، وقف الوفود وحدهم ، وأعيان الأيرانيين وحدهم . ثم أقبل جلالة الشاه ، فسلم على الوافدين واحداً واحداً ، يعرفه بهم رئيس الوزراء ووزير المعارف . ثم ارتقى جلالة الشاه النصب ، ووقف يقرأ كلمــة افتتاح تذكار الفردوسى . ثم قطع بمقراض الشريط المحيط بالنصب ودخل فرأى قبر الشاعر ، ثم دُعى الوفود فدخلوا . ثم وقف جلالة الشاه فى ناحية من الحديقة يتحدث مع وزرائه ، ثم ركب سيارته . وبقينا زمناً نمتع العين بما نرى ، ونأخذ بأطراف الحديث

٤٠١٠

ورأيت على يسار الجادة المفضية إلى حديقة الفردوسى بناء له قبة وقد تهدمت أعاليه ، فقال من كان معنا من أهل مشهد إنه قصر بناه الرشيد ، وقال بعض المستشرقين إنه قبر الغزالى . وإنه بنى على نسق مرقد السلطان سنجر فى مرو ، وعلى نسقه بنى مرقد السلطان الجايتو فى السلطانية . وإنما العلم عند الله

الأستاذ مينورسكى أستاذ اللغات الشرقية بجامعة لندن والدكتور عبد الوهاب عزام فى حضرة جلالة الشاه

رجعنا إلى مشهد فبقينا إلى صبيحة الأثنين . ثم أخذنا طريقنا عودا إلى طهران

عبد الوهاب عزام

لجنة التأليف والترجمة والنشر

المختــــار

من شعر بشار

اختيار الأديبين الكبيرين المعروفين بالخالديين ، وشرح لأبى الطاهر اسماعيل بن أحمد بن زيادة الله التجيبى البرقى من أدباء القرن الرابع الهجرى

أتمت طبعه لجنة التأليف ، فى نحو ٤٠٠ صفحة مع ضبط الشعر والغريب ، على ورق جيد

وثمنه ١٢ مـ عدا أجرة البريد

ويطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر بشارع الكردانى نمرة ٩ (عبد العزيز) مصر — ومن المكتبة التجارية والمكاتب الشهيرة